

الاستشراق الفرنسي وأثره في نشأة الفن التشكيلي الجزائري

The French Orientalism and its Impact on the Rise of the Algerian Plastic Art

مخالدي محمد¹، أ.د. عزوز بنعمر²

¹ جامعة أحمد بن بلة وهران 1، makhaldi4@gmail.com

² جامعة أحمد بن بلة وهران 1، azzouzbendz@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2018/12/05

تاريخ الاستلام: 2018/10/24

ملخص:

يتعرض هذا المقال إلى موضوع الاستشراق الفرنسي في الجزائر وتأثيره على نشأة الفن التشكيلي الجزائري الحديث، حيث ونظرا للظروف الاستعمارية الفرنسية، فقد زار الجزائر وأقام بها العديد من الفنانين التشكيليين الفرنسيين من رواد الفن الحديث في فرنسا وأوروبا، وجاء الكثير من إنتاجهم الفني مستلهما من المناظر الطبيعية والمشاهد الاجتماعية الجزائرية المتنوعة والمختلفة.

ولعل أكثر هؤلاء تأثيرا وارتباطا بالجزائر إتيان دينيه، كما أن من أهم مظاهر الارتباط والتأثير التشكيلي الفرنسي في الجزائر الدور الذي اطلعت به فيلا عبد اللطيف في الجزائر العاصمة كدار للفن التشكيلي، لذا يتناول هذا المقال التعريف بهما وأهميتهما ودرجة تأثيرهما في مسيرة الفن التشكيلي الجزائري، مع عرضنا ما كان لهذا التأثير من آثار سلبية. كلمات مفتاحية: الاستشراق، الفن التشكيلي الجزائري، إتيان دينيه، فيلا عبد اللطيف.

المؤلف المرسل: مخالدي محمد، الإيميل: makhaldi4@gmail.com

Abstract:

This paper treats the theme of Orientalism and its influence and impact on modern art in Algeria, where, due to the colonial conditions of France, the latter set up many of its artists who are the pioneers of modern art in France and Europe, and came a lot of their artistic production inspired by the landscape and the diverse Algerian social scenes. Perhaps the most influential of these artists and in association with Algeria is Etienne Dinet. The most important aspect of the association of the French artistic tradition and its influence in Algeria is the role that Villa Abdellatif played in Algiers as a center figure for plastic art. This paper, henceforth, deals with the importance and the influence of Orientalism and its either positive or negative impact on the Algerian art.

Keywords: Orientalism, Algerian Modern Art, Etienne Dinet, Villa Abdellatif.

1. مقدمة:

يَدْعِي الغرب أن النشاط الاستشراقي لم يكن إلاّ إشباعاً لفضولٍ جامح في المعرفة والاستكشاف، بينما يرى أهل الشرق أنّه محاولة لغزوٍ فكري وثقافي ممنهج كان ممهداً أو مرافقاً للغزو العسكري، فهو لا يتعدى أن يكون وجهاً آخر للاحتلال والاستعما . ر . بين هذا وذاك فإنّه يبقى ظاهرة وُجدت في كل أنحاء البلاد العربية والإسلامية، وبغضّ النظر عن النوايا والمقاصد فإنّ هذه الظاهرة قد تركت الكثير من الآثار السّلبية والإيجابية التي يستطيع الباحث والدّارس في شتى المجالات خاصّة الفكرية والفنية استخلاصها بكل وضوح. باعتبار الجزائر جزءاً من هذا الشرق الكبير فقد كانت مقصدًا لحملات استشراقية مهمّة من كبار الفنانين التشكيليين الفرنسيين فما هو الأثر الذي تركه هؤلاء الفنانون على الثقافة الجزائرية؟ وما هي الإضافات التي نتجت عن ذلك النشاط التشكيلي الاستشراقي في الجزائر؟ وما هي الآثار السلبية التي حملها ذلك النشاط اللافت؟

بحكم الارتباط الذي فرضه الوضع الاستعماري بين الجزائر وفرنسا فإن النشاط التشكيلي الاستشراقي الفرنسي في الجزائر كان امتداداً لما شهدته فرنسا وأوروبا خلال فترة الحداثة. مما كان له دور وأثر مباشر على نشأة الفن التشكيلي الجزائري الحديث، ويكتسي هذا البحث أهمية كبيرة عندما يتطرق إلى أهم الأدوار التشكيلية الاستشراقية في الجزائر ممثلة في الفنان التشكيلي الفرنسي **اتيان دينيه**، و**فيلا عبد اللطيف** التي كانت مهداً للفن التشكيلي الجزائري.

حيث إنّ الحاجة إلى هذه الأبحاث ملحة جداً نظراً لشح الدراسات المتخصصة في هذا المجال، حيث نرى أنه يقدم الفائدة والإضافة إلى كل راغب في الاطلاع على تاريخ الفن التشكيلي في الجزائر من الطلبة والباحثين في مجال الفنون التشكيلية.

2. الإستشراق في الجزائر:

كان احتلال الفرنسيين للجزائر بمثابة الاكتشاف العظيم الذي فتح لهم آفاقاً جديدة، إذ انبهر الفرنسيون وهم يشاهدون ما للجزائر من جمال طبيعي وفني متمثلاً في روعة العمران وجمال المدن والبيوت وسحر اللباس الشائع والمقتنيات التي تم لأ البيوت من التحف الفضية والنحاسية والأثاث الخشبي والزّرابي وغيرها، فتوالت زيارات الفرنسيين إلى الجزائر من شتى الأصناف خاصة المثقفين منهم، وكان الفنانون أكثر الزائرين انبهاراً وأشدّهم حرصاً على مجاورة هذا الجمال، "ولقد كان العالم العربي المشرقي عالم السحر والغموض والروائع، كعبة الكتاب المغامرين والفنانين، الذين أرادوا الاستحياء من جوه ومن القصص المتواردة عنه"¹.

إن الفنانين الفرنسيين لم يستطيعوا إخفاء مدى إعجابهم بالجزائر كمجتمع يملك مقومات الحضارة والرقي، من خلال العمران والتقاليد الجميلة والسلوكيات السائدة والتي ورثها الإنسان الجزائري الفنان عن أجداده وعن الشعوب التي احتكّ به؛ وهاهي النخبة الفرنسية من الفنانين الرواد والمرموقين يتقدّمهم **أوجان دولاكروا** Eugène Delacroix و**أوجان**

فرومانتان Eugène Fromentin يصلان بذهول لا يوصف وهم ا يقيم ان في هذه البلاد، حتى أن الفنان الكبير إتيان دينيه Étienne Dinet اتخذ قراراً تاريخياً بأن يكمل ما تبقى من عمره في الجزائر وأوصى أن يدفن فيها، وبالفعل وافته المنية في فرنسا وكان له ما أراد حيث جيء بجثمانه ودفن في منطقة بوسعادة تحديداً، ليبقى موقفه عرفانا واعترافا بعظمة ونبل المجتمع الجزائري، وبندره هذه الأرض الخلابه والأسرة، وقد ذكر عفيف البهنسي في كتابه الفن الحديث في البلاد العربية اعترافاً لأحد المؤرخين المعروفين وهو (الا زار) قوله " لقد أصبح من الأمور التقليدية سفر الفنانين إلى شمال إفريقيا، تماماً كما كان الأمر بالنسبة لزيارة ايطاليا واسبانيا، وأخذ الاستشراق يتجدد باستمرار"².

"يرجع اهتمام المستشرقين الفرنسيين عموماً بالشرق العربي والجزائر إلى ما قبل سنة 1930 بعقود. ولكن الحملة الفرنسية هي التي فتحت لهم أبواب الشرق على مصراعيه، فرافقها بعضهم ولحق آخرون في أعقابها ومن هؤلاء بعض الفنانين البارزين أمثال دولاكوا وهوراس فيرنيه، ثم تلاحقت زيارات الفنانين وإقامتهم بالجزائر واكتشافهم لأسرار و عطور الشرق فيها إلى أن أنشئت فيلا عبد اللطيف التي أصبحت في أول هذا القرن مدرسة يتكوّن فيها الفنانون الفرنسيون ..."³.

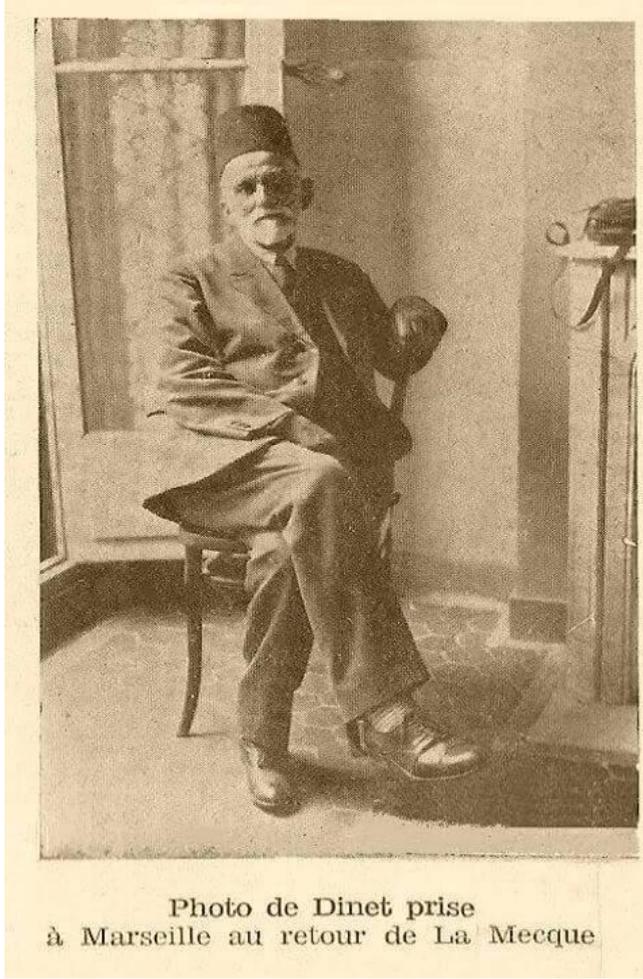
ولو أننا حاولنا إحصاء عدد الفنانين الذين زاروا الجزائر منذ بداية الاحتلال وخلال الفترة الاستعمارية لأمكننا القول إن الجزائر كانت قبلة لخيرة الفنانين التشكيليين، ليس في فرنسا وحسب بل في أوروبا والعالم، كون الأرض الفرنسية آنذاك كانت مهذاً للفن التشكيلي العالمي وكانت الحلبة التي احتدم فيها الصراع بين مختلف التوجهات الفكرية والفنية وأساليبها المتعددة، وهي فترة الحداثة في الفن العالمي، لقد زار الجزائر أوغست رنوار

Pierre-Auguste Renoir وهنري ماتس Henri Matisse وتيودور جيريكوا Théodore

Géricault، وديكامب Timo Descamp ودوزاه Dusan، وغيرهم من الفنانين المشهورين أو الأقل شهرة إلا أن المؤكد أن أعمال هؤلاء الفنانين ذات مستوى فني كبير كون الفترة التي أنجزت فيها هي من أخصب مراحل الفن الحديث، الذي يعتبر من أغزر مراحل تاريخ الفن العالمي وأكثرها رقيا، وهنا ننبه أن هذا الحديث ليس مجرد حديث عن زيارات عابرة أو سياحية لهؤلاء الفنانين إنما نحن نتحدث عن زيارات فنية أثرت في أسلوب وأعمال هؤلاء الفنانين وظهر ذلك جليا في اكتشافهم للألوان الحارة الدافئة في أغلب مناطق الجزائر خاصة كلما اتجهنا للجنوب، كما أن مخلفات هؤلاء الفنانين هي التي نتحدث عنهم في مختلف متاحف الجزائر، خاصة في العاصمة وقسنطينة ووهران . إن هذه المتاحف تحوي العديد من الأعمال الفنية النادرة لكثير منهم، وهي تعتبر من التراث العالمي النادر والمنسي على الوجود من أهميته الكبيرة في تاريخ الفن، وهو ما يمنح متاحف الجزائر منها متحف الفنون الجميلة بالعاصمة مرتبة شديدة الأهمية بين متاحف العالم إذ إنه من الممكن جدا أن تكون تلك المتاحف قطبا سياحيا كبيرا يدر على الدولة قدرا كبيرا من العملة الصعبة إلا أن الإهمال وغفلة المسؤولين في سوء استغلال تلك المقومات جعلها منسية مجهولة.

إن هذه القيمة الكبيرة لهذا الإرث الاستشراقي قد ساهم بلا شك وبقيط كبير في تكوين ونشأة الفن التشكيلي الجزائري، وبعث مواهب فنية كبيرة استطاعت أن تبرز على الساحة الفنية الوطنية والدولية وبمستوى عالٍ من الممارسات التشكيلية الراقية، حتى إن التجربة الجزائرية في الفن التشكيلي متميزة جدا وتحثل الصدارة في العالم الثالث وهي فريدة في العالم العربي، لكونها وليدة الفن التشكيلي الحديث في أوروبا وفرنسا، وهو الأمر الذي لم يتيح لكل محبي الفن التشكيلي في العالم، حيث كانت فرنسا وجهة كلّ موهوب أراد ان يمارس الفن أو يدرسه، أو أن يُظهر فنه، أو يعلن عن أسلوب جديد ، لأنها وببساطة وخلال فترات زمنية طويلة كانت عاصمةً للفن التشكيلي العالمي.

1.2. إتيان دينيه Alphonse-Étienne Dinet (الحاج ناصر الدين) :



صورة نادرة للفنان الحاج نصر الدين دينيه بعد عودته من البقاع المقدسة

المصدر: <http://gadames.eklablog.fr/etienne-dinet-a132071802>

لن نكون منصفين مطلقاً إذا نحن تحدثنا عن الاستشراق والفن الاستشراقي في الجزائر
ثم لم نخصص مجالاً كافياً لشخصية فذة ونادرة كشخص الفنان والمستشرق الكبير نصر
الدين دينيه : إنه الفنان الذي استهوته بوادي الجزائر في الأغواط وبوسعادة فاندمج فيها
مبدعا بريشته، وامتدنا بدينها الإسلامي عن علم وقناعة قويين، إذ لم يعد الشيخ نصر الدين

فناناً تشكيلياً بارعاً وحسب، بل أصبح أستاذاً وقُدوةً لأغلب الفنانين الجزائريين . فقد استطاع دينيه أن يقرأ الإنسان الجزائري من خلال لوحاته التي صوّر فيها الطفولة في المجتمع البوسعادي، وهي تلهو أو تتعلم أو وهي تقوم بأعمال البيت الروتينية، صوّر النساء ويوميتهن المليئة بالأحاديث والأشغال وكذلك في المناسبات، كما صوّر الرجال في أشغالهم وفي صلاتهم وأعيادهم ومناسباتهم، في هياتهم ورجولتهم . لقد كان إنتاجه غزيراً ومتنوعاً يدلّ على صدق عاطفته وشدة ملاحظته لتفاصيل الحياة اليومية في المجتمع الصحراوي، فكان بحق مؤرخاً وفيلسوفاً وعالم اجتماع من خلال تلك الأعمال الفنية الرائعة .

وقد كتب عنه المفكر الكبير مالك بن نبي : "إتيان دينيه لم يكن، فحسب الرسام الذي استيقظت هنالك رسالته، التي أخذت به إلى مداها . وهو لم يكن، فحسب، الشاعر الذي استسلم لسحر ذلك النداء الخفي . لقد كان ذلك كله بل أكثر . ففي الواحة هناك حياة إنسانية، سوف يكتشفها وهو يجتاز طرقاتها الضيقة . هذه الحياة لها ألوانها الخاصة بها، والتي تتحدث إلى المشاعر وإلى الرسام فلوحاته .. كلوحة (النساء الزاهيات إلى الزيارة) أو لوحة (التماس هلال رمضان) هي قمة الإبداع الفريد في التعبير عن الإشكال والحضور الإنساني . لقد كان دينيه، كما اعتقد، الريشة التي أعطت لتلك الأشكال اللهجة الأكثر تأثيراً واسمه سوف يبقى ذلك الرسام الأوفى بحياة الجنوب⁴ .

2.2 ترجمة الفنان:

ولد ألفونس إتيان دينيه Alphonse-Étienne Dinet في باريس سنة 1861م في وسط عائلة برجوازية، كان والده قاضياً فرنسياً بارزاً في عام 1865 ولدت شقيقته جين، التي ستكون كاتبة سيرته الشخصية، أما جده فقد كان مهندساً، وأمه تدعى ماري لويز اديل وهي ابنة محام⁵ .

بعد تخرجه من مدرسة الفنون الجميلة ويتفوق فاز بميدالية مهمة من صالون الصناعة التقليدية سنة 1884م كما تحصل على منحة دراسية إلى الجزائر، حيث استطاع التنقل والتجول في كل من الأغواط وورقلة حيث انتابه إعجاب كبير بمفاتيح البيئة الصحراوية، وقد مكث بها خمس سنوات وفي العام 1889 م عاد إلى باريس حيث عرض أعماله التي رسمها ببوسعادة في المعرض العالمي وفاز بالميدالية الفضية⁶.

"في بوسعادة تعرف الفنان إتيان دينيه على إحدى العائلات، هي عائلة الحاج سليمان بن براهيم الذي أصبح صديقا له وملازما له. وعن طريق بن براهيم اكتشف الحياة والمشاعر العربية، وظهر ذلك في لوحاته... وقد اشترك دينيه و الحاج سليمان في تأليف الكتب والأسفار والحج. وتعلّم منه اللغة العربية وآدابها، وتاريخ الإسلام وتعاليمه. وقاده تعمّقه في فهم الحياة العربية وحياة المسلمين ومبادئ الإسلام إلى إظهار اعتناقه لهذا الدين سنة 1927... وأمام حفل جرى في الجامع الجديد بالعاصمة تحت إشراف المفتي الحنفي الشيخ محمد بوقندورة أعلن دينيه إسلامه وتسمى ب ناصر الدين وقد احتفل المسلمون بهذا الحدث لشهرة دينيه الفنية التي سبقته. وأقاموا له حفلا على شرفه في نادي الترقّي، وفي سنة 1929 أدى فريضة الحج برفقة صديقه الحاج سليمان بن براهيم... ولم تطل به الحياة بعد ذلك، فقد سافر إلى باريس فأصابته هناك نوبة قلبية فتوفي على إثرها، وأوصى أن ينقل جثمانه ويدفن في بوسعادة ووقع ذلك بالفعل في 21 يناير 1930..."⁷.

3.2. آثاره ومكائنه:

لقد ترك الفنان ناصر الدين دينيه كما هائلا من اللوحات الفنية التشكيلية الزيتية على القماش بأسلوب واقعي شديد العمق والصدق والعبقرية، لقد تنوّعت أعماله بين المشاهد

اليومية للحياة الصحراوية خاصة في بوسعادة بالإضافة إلى المشاهد الدينية خلال المناسبات والأعياد، لقد تتبع في بوسعادة بريشته في كل مكان، في الغابة والجبل كما في البيت والمدرسة وحين لعب الصغار وفرحهم وحزن الكبار واجتماعه عند الذهاب إلى الحج والصلاة والدعاء وعند الصيد وبعض المناظر الطبيعية، بالإضافة إلى مهارته وتقنيته العالية في وضع الألوان وتمثيل الظلال كانت لوحاته مفعمة بالأحاسيس، تحمل تعابير قوية لا يستطيع ملاحظتها وتسجيلها بتلك البراعة إلاّ فنانا بعيد الرؤى عميق الفكر مرهف الحس ماهرا في التنفيذ مثل اتيان دينيه.

"من لوحاته الدينية (العرب أثناء الصلاة) وهي تمثل صورة ثلاثة من الرجال في حالة التأهب للتكبير وهم بلباسهم الإسلامي الأبيض، ولكنه أضفى على الصورة ألوانه الخاصة وجعل حركات أيديهم ولمعان عيونهم كأنها ناطقة، ومنها (أطفال العرب أثناء كتابة اللوح) في المدرسة القرآنية وهي أيضا لوحة نابضة بالحياة وله لوحات أخرى اجتماعية وغرامية، أو معبرة عن أنشطة خاصة مثل صورة (المداح) وهو ينشد وحوله المستمعون في حالة انسجام واستغراق، وصورة الكمين الذي نصبه ثلاثة من العرب وهم يتأهبون لإطلاق النار على عدوهم، ثم صورة الحمار والأطفال أي صورة حمار يركبه ثلاثة أطفال وهم في حالة زهو ونشوة. ويقال أن دينيه ترك حوالي 150 لوحة. وقد لخص باحث فرنسي إنجازات نصر الدين دينيه فقال انها تعمقت في الحياة بتصوير الكتبان الرملية والجبال والنخيل والأطفال والرجال والنساء والفوارس والراقصات، والموت ونبض الحياة في اللوحات ولا سيما بوسعادة" ⁸.

وعلى الرغم من كل هذا المستوى الراقى من الإنتاج الفني والذي قلّ مثيله في فرنسا وفي أوروبا كلها، فلفه جوبه بنكران منظم إذ لم تحتف به فرنسا وهو ابنها، ولم يذكر حتى اسمه بين الفنانين الآخرين وهو الفنان المثقف وابن عائلة معروفة في فرنسا، رغم

شيوخ اسمه بين المبدعين في مطاع حياته ... إلا انه جوبه من قبل إعلام إدارة الاحتلال ،
بمواجهة غطّت على إبداعاته ، وغمطته حقه التاريخي ، وغبنته في شهرته ومجده، لا لشيء
سوى لأنه اختار منهج الفضيلة فيما طرحه من أفكار وإبداعات ولم يعتنق منهج الزور
والزيف الاستعماري ...⁹.

يتحدث مالك بن نبي بكل حسرة وأسى وهو يروي لنا هذه الحادثة " فحوالي 1931 زرت
متحف اللوفر، وكنت أنتظر أن أجد فيه بعضا من لوحات ذلك الرسام الكبير، الذي كان قد
توفي حديثا، وأشدّ ما كانت خيبيتي أنني لم أجد شيئا منها، وحينما عبّرت عن هذه الخيبة
لطالب في الفنون الجميلة، كان قد تطوّر بلطف ليرشدني، فوجئت بجوابه:
لحسن الحظ لا يوجد مثل تلك القبّاحات هنا. لست أدري إذا كانت الأمور تغيّرت منذ ذلك
الزمن في متحف اللوفر، ولكني أفهم اليوم بصورة أفضل تلك الأمور"¹⁰.

3. فيلا عبد اللطيف:

تعتبر دار عبد اللطيف من أجمل ما خلفه الأتراك في الجزائر العاصمة، بنيت هذه
الدار التحفة قبل العام 1715م حيث استعملت كإقامة للعديد من المسؤولين الأتراك إلى أن
امتلكها رجل ثري ومثقف اسمه عبد اللطيف ... وإذا كانت أسماء الملاك السابقين الذين
تداولوا على هذه الدار قد دخلت طي النسيان، فإن اسم عبد اللطيف مازال حاضرا بقوة لأنه
تحوّل إلى بطاقة تعريف هذه التحفة المعمارية التاريخية وقد يكون ذلك بسبب كون عبد
اللطيف، زيادة على ثرائه ورفيقه الاجتماعي شاعرا ومثقفا من نخبة العاصمة الجزائرية قبل
قرنين، جمع في داره زبدة الشعر الجزائري آنذاك في مجالس أدبية وسهرات شعرية فائقة
الجمال¹¹.

شاعت الأقدار أن تكون هذه الدار المهد الأول للممارسات التشكيلية في الجزائر كان ذلك على يد الفرنسيين " أنشأ الفرنسيون مدرسة الفنون الجميلة ثم فتحوا فيلا عبد اللطيف أمام الفنانين الفرنسيين، أما المدرسة فقد فتحوها سنة 1881 في مدينة الجزائر"¹².



جانب من فيلا عبد اللطيف بعد ترميمها سنة 2006

المصدر: <http://www.hayatweb.com/article/74431>

تعتبر هذه الدار كما ذكرها الواصفون والمؤرخون وعلى رأسهم أبو القاسم سعد الله وعفيف الهمسي تحفة فنية فريدة في هندستها المعمارية وفي اخضرار حدائقها وكأنها قطعة من روائع الأندلس "وبناءً على وصف ابن عمار فلينّ الفيلا كانت غارقة في الاخضرار الزمردى، وكانت آية في الجمال والرونق، وقد استقبلت ضيوفها من الأدباء والسياسيين حيث قضوا سهرة من سهرات القصور البغدادية والأندلسية"¹³.

1.3. فيلا عبد اللطيف مهد الفنون الجميلة في الجزائر:

بعد فترات صعبة مرّت بها هذه الدار خلال السنوات الأولى للاستعمار الفرنسي بمصادرتها واستعمالها لأغراض عسكرية، غير أن الحظ ابتسم مرة أخرى لدار عبد اللطيف بعد أن أثارت انتباه النخبة الفرنسية وبعض فنانيها على وجه الخصوص بفضل اقتراح أرسن ألكسندر Léonce Bénédite و ليونس بيهديت arène Alexandre محافظ متحف اللكسمبورغ بتحويلها إلى ورشة للفنانين التشكيليين بصفة خاصة. وقد وجد هذا الاقتراح الجميل كل التجاوب من طرف الحاكم العام جونار Jonnart الذي استرجعها ورممها وحقق رغبة ألكسندر وبيهديت ، كان ذلك سنة 1907 عندما جسّد جونار الفكرة ودعا الفنانين المهوبين الناشئين في الحركة الفنية بباريس ليحلوا بالجزائر ويعيشوا فيها الحياة العربية ويستفيدوا من أجوائها وطبيعتها، حيث تم الاتفاق وبعد استشارة مع مدير متحف لكسمبورغ على أن تمنح إقامة فنانين اثنين كل سنة بعد المشاركة في مسابقة في فرنسا على أن تكون رحلتهم وإقامتهم على نفقة الدولة، وأن يكونوا أحرارا فيها غير ملزمين بلية خدمة¹⁴.

...كما ستعطي هذه الحركية الفنية بدار عبد اللطيف فنانا جزائريا كبيرا لمع في الأسلوب الساذج وهو حسان بن عبوة أحد أحفاد بابا عروج شقيق خير الدين بربروس..ويبدو أن تأثير فيلا عبد اللطيف كان عظيما حتى أن هناك جمعيات فنية أصبحت مرتبطة بها . وقد ذكر الازار قائمة الفنانين الذين سكنوا الفيلا واستفادوا منها¹⁵.

ولقد تحدث الباحث عفيف الهنسي عن الفنانين الكبار الذين ارتادوا هذه الفيلا "لابد من ذكر الفنانين الأوائل الذين أقاموا في مركز عبد اللطيف من أمثال ماكسيم نواره M.Noirie الملقب بالفنان الجزائري في لوحاته (ولادة في الصحراء) و(أغنية الناي) و (ياسمين الساحل) ، ومن أمثال ليون كوفي الذي أصبح التصوير الجزائري على يده أكثر نزقا وأكثر نهجية ،

وليون كاري الذي اكتشف الأناقة والدقة في الطبيعة الجزائرية " 16 ، وقد استمر في الحديث فذكر أكثر من أربع وعشرين رساما ونحاتا فرنسيا ممن نالوا قسطا كبيرا من الشهرة في فرنسا والعالم، وه ذا ما يجعلنا ندرك ما لهذه الدار من أهمية ودور كبير في بعث الممارسة التشكيلية في الجزائر، وتبلورت بفضل هذه الدار التحفة، التي أصبحت تشبه في الأربعينيات والخمسينيات كبريات الورشات الفنية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مثل الفيلا "ميديسيس" La villa Médicis الإيطالية ودار "فيلاسكيز" Casa Velasquez الإسبانية، سوق الجزائر للوحات والتحف الفنية قائمة بذاتها يتنافس فيها الأثرياء الكولون والسواح الانجلوساكسونيين على اقتناء أجملها وأشهرها، خاصة اذا كانت تحاكي أزقة القصبه وسطوحها أو مقبرة القطار ومنظر خليج الجزائر الساحر شارل دوفران (Charles Dufresne) أحد كبار الفن التكعيبي الفرنسيين تخرج من دار عبد اللطيف هو الآخر، وكذلك الأمر بالنسبة لادولف بوفرار، وأوغستان فيراندو ، ولويس بيرتوم ...، الذين ألهموا بأعمالهم الرائعة حول قصبه الجزائر¹⁷.

ترتب عن هذا الاستغلال لهذه الفيلا أو القصر آثار ايجابية كبيرة في وضع اللبنة الأولى للممارسات التشكيلية في الجزائر والعمل على تأسيس حركة فنية تشكيلية حقيقية، بغض النظر عن القيود العنصرية تجاه الجزائريين، كما كان لهذه الدار تأثير واضح وبلغ على الفنانين الفرنسيين الذين ارتادوها، وهو ما أثر مباشرة على الفن التشكيلي الحديث في فرنسا آنذاك، "ولقد لعبت هذه الفيلا أو هذا المركز دورا هاما في تقوية الارتباط بين الجمالية الإسلامية والفنانين الفرنسيين الشباب فلقد كانت جميع الشروط لديهم ملائمة لكي يستفيدوا من تجربتهم الفنية فالمدة كافية وجو الفيلا عربي صرف، ثم إن الفنانين متفرغون لمهتهم بعيدا عن أية مسؤولية أخرى وظيفية كانت أو عسكرية أو غير ذلك"¹⁸.

2.3 الوجه السلبي لفنون الاستشراق:

من المبرر جدا أن يكون للاستشراق الأوروبي عامة والفرنسي خاصة أطماعا ونوايا وأهدافا استعمارية استدمارية سلبية، حيث لم يكن ذلك الاهتمام الكبير بريئا في يوم من الأيام، مهما كان المحتل وأينما وجد في كل مكان من هذه الأرض. "إن الكثير من المفكرين العرب يعتبرون الاستشراق ظاهرة فكرية لعبت دورا خطيرا في الفكر والأدب العربيين قديما وحديثا"¹⁹.

"وحرصت السلطات الاستعمارية الفرنسية على تجنيد وتوظيف هؤلاء المستشرقين في المناصب الإدارية الحساسة للاستفادة من خبرتهم واستغلالها في بسط نفوذهم الاستعماري. كما عملوا واجتهدوا في تسويق القيم الحضارية الأوروبية بمختلف صورها وأنماطها وأفكارها الإباحية، وسط المجتمع الجزائري العربي الإسلامي المحافظ"²⁰.

إن خطورة ما قام به المستشرقون الرسامون كان واضحا وجليا من خلال الصورة التي عمد أغلب الفنانين على إظهارها عن الشعوب الإسلامية التي احتلوها أو زاروها، فبغض النظر عن القليل من الحالات النزيهة فقد وجدنا أغلبهم يصور النساء والعائلات المعروفة بالحياء والحشمة وقيود أسرية متينة راسخة في المجتمعات الإسلامية عامة، ولعل أكبر مغالطة ما قام به **أوجان دولاكروا** Eugène Delacroix وهو أشهر و أهم فنان مستشرق فرنسي زار الجزائر، على الرغم من كون زيارته تلك كانت قصيرة جدا في الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر، فإن لوحته **نساء الجزائر** يضعها المؤرخون من بين اللوحات الأشهر والأهم من بين أعماله، والأكثر من ذلك فإن الكثير من الدارسين يضعونها أنموذجا للفن الرومانسي، صحيح أن اللوحة مليئة بالقيم الفنية والجمالية وهي محكمة التركيب وغارقة في الرومانسية إلا أن هذا غير كاف لتكون على هذه الشهرة الكبيرة لو لم تكن هناك نية في تحدي المجتمع الجزائري المحافظ ومحاولة تكسير لجدار الستر الذي استعصى على

الفرنسيين، وقد أثار **دولاكروا** هذه المشكلة في مذكراته، وتحدث عن صعوبة أو استحالة الحصول على نموذج (موديل) شرقي نسوي، "حتى أنه كان يلجأ إلى إغرائهن بالمال مقابل موافقتهن على تصويره إياهن إلا أن الفرصة تمت في الجزائر رغم قصر مدة الزيارة التي لم تتعد الثلاثة أيام حين استطاع أن يدخل أحد البيوت الجزائرية ويصوّر نساءه، وهي حالة استثنائية لم تتح لأحد غيره سابقا ويكون بذلك قد أرضى فضوله الرومانسي برؤية كنز، فدولاكروا كان يعتبر أنه لو لم ير النساء الشرقيات حقا فمعنى ذلك أنه ما كان ليتصور كليا ماهية الشرق الحقيقي في أكثر عناصره غموضا"²¹.

"ومما يؤسف له أن بعض الفنانين الغربيين قد انحرفوا عن أهدافهم فكي يصوروا

الفقر والتخلف، في موضوعات تصوّر الشحاذين والبدو والفلاحين الفقراء، ولقد شوّهت موضوعاتهم هاته فكرة الغرب عن الشرق، إذ أصبح بنظرهم مركزا للتخلف والفقر عوضا أن يكون مركزا للروائع والخيال أو موثلا للمحظيات والوصيفات كما فعل جيروم ولويس"²².
لقد أثبتت الوقائع والأيام أن الاحتلال الغربي لبلاد الشرق عامة كان ممنهجا ومخططا له، ولم يكن عسكريا وحسب بل إن وعيهم وقناعتهم بقوة المسلمين في تماسك مجتمعاتهم المحافظة، تتطلب خطة شاملة شديدة الإحكام للوصول إلى درجة كبيرة من السيطرة على تلك الشعوب التي ضعف رعاتها وأصبحت إلى الشرود هي أقرب؛ وانطلاقا من تلك القناعات المبررة عمل الاحتلال الفرنسي على فهم المجتمع الجزائري واكتشاف خباياه وأسراره ومعرفة تطلعاته وتوجهاته ومواطن الضعف والقوة عنده لأن بهذه العناصر وغيرها يمكن الولوج في عمق المجتمع ومنها إمكانية التأثير عليه ومحاولة تشويه ما يمكن تشويهه، ولم يكن المستدمر الفرنسي ليصل إلى هذه الأهداف لولا المستشرقون باختلاف صفاتهم الفكرية والفنية أو الاستكشافية ... حيث تمكن هؤلاء المستشرقون من التغلغل داخل المجتمع الجزائري ودراسة تفاصيله البسيطة ومنها عمل المحتلون على بناء خطة لهدم وتدمير

الشخصية الجزائرية وتشويه الصورة المثالية لها . ومن بين هؤلاء كان الفنانون التشكيليون الذين صوّروا الأتراك على إنهم أهل بذخ ومجون و أنّ ما جعلهم يمكنون بالجزائر هو استعبادهم للناس واستغلالهم للخيرات وسبيهم للنساء، كما أنّ الكثير من الفنانين صوّروا المقاومين الجزائريين في مواقف ضعف وهزيمة واعتراف ببؤس المحتلين، رغبة منهم في بعث روح الضعف والانهازم ونشر عقلية العظمة الفرنسية التي لا تقهر، كما تعمّد المحتلون خدش حطية المجتمع الجزائري ومحاولة تكسير جدار الحياء الذي عرفوا به وذلك برسم النساء في سفور فاضح بين الرجال أو في مجالس اللهو والمجون، على غرار لوحة **نساء الجزائر** له **لاكروا** وما رسمه الفرنسي الآخر **جورج روسغروس** George Rochegrosse الذي أظهر في الكثير من لوحاته نساء مسلمات في سفور تام يستحيل أن يراها أحد على تلك الحال²³، وكمثال آخر ما فعله الفنان الشهير **جان أوغست أنغر** Jean Auguste Ingres في لوحته **حمام تركي**، حيث اختار هذا الفنان أن يصوّر النساء المسلمات داخل الحمام الجماعي على الطريقة التركية التي انتشرت في كل البلاد العربية والإسلامية، كما نسجل ظاهرة دخيلة انتشرت في نهاية القرن التاسع عشر في العديد من المدن الجزائرية تمثلت في وضع التماثيل العارية في الساحات العمومية ومن أشهرها تمثال عين الفوارة الذي وضع في العام 1896 واختير له مكان قبالة المسجد العتيق آنذاك، وأمثلة ذلك كثيرة في أغلب المدن الجزائرية، إنّ مثل هذه المبادرات لم تكن بريئة أبدا كما ذكرنا سابقا، وإنما هي جزء من مؤامرة خبيثة كانت تستهدف المجتمع الجزائري.

4. خاتمة:

يتضح مما ذكر إن الفن التشكيلي الجزائري الحديث ارتبط إلى حد كبير بما كان يحدث في فرنسا خلال فترة الحداثة بل إن النشاط التشكيلي الفرنسي اتخذ من الأرض الجزائرية مقرا لجزء من نشاطاته، كما أن المواضيع المتعلقة بالجزائر أخذت حيزا وقدرًا معتبرا من الإنتاج التشكيلي الجزائري، تمثلت في العدد الهائل من اللوحات التي تصوّر المناظر الطبيعية الجزائرية ومشاهد المجتمع الجزائري المختلفة، نذكر أهم وأشهر لوحة رومانسية نساء الجزائر للفنان أوجان دولاكروا E. Delacroix وغيرها من اللوحات الأخرى وما رسمه ماتيس H. Matisse أبو الفن الحديث في بسكرة، وما خلفه رونوار Auguste Renoir وفرومندان E. Fromentin، وإتيان دينيه É. Dinet، وغيرهم كثير ممن ذكرنا وممن لم يسعفنا المجال لذكره، ولعلّ المتاحف الجزائرية والفرنسية والعالمية، هي التي تحوي حقائق تلك اللوحات الكثيرة والمتنوعة عن الجزائر.

الإحالات والهوامش:

- ¹ عفيف البهنسي، أثر الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1998، ص.119.
- ² عفيف البهنسي، الفن الحديث في البلاد العربية، تونس، دار الجنوب للنشر، 1980، ص.34.
- ³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج.8، ص.374.
- ⁴ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة من أجل التغيير، دمشق، دار الفكر، 1995، ص.72.
- ⁵ عن الموسوعة الإلكترونية - <https://ar.wikipedia.org/wiki>
- ⁶ المرجع نفسه.
- ⁷ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سبق ذكره، ص.416-417.
- ⁸ المرجع نفسه، ص.417-418.
- ⁹ الصادق بخوش، التذليل على الجمال، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال الروبية، 2002، ص.31.
- ¹⁰ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة - من أجل التغيير، مرجع سبق ذكره، ص.75.

- ¹¹ فوزي سعد الله، قصبّة الجزائر الحاضر والذاكرة والخواطر، الجزائر، دار المعرفة، 2007، ص. 87.
- ¹² المرجع نفسه، ص 382.
- ¹³ المرجع نفسه، ص 384.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 386.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص 388.
- ¹⁶ عفيف البهنسي، أثر الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، مرجع سبق ذكره، ص. 131.
- ¹⁷ فوزي سعد الله، قصبّة الجزائر الحاضر والذاكرة والخواطر، مرجع سبق ذكره، ص 87.
- ¹⁸ عفيف البهنسي، أثر الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، مرجع سبق ذكره، ص. 130.
- ¹⁹ خالدي محمد، المستشرقين وأثرهم الفكري والفني في الجزائر، مجلة الأثر، العدد 13، مارس 2012، ص. 272.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص 273.
- ²¹ زينات البيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، الكويت، عالم المعرفة، 1998، ص. 221.
- ²² عفيف البهنسي، أثر الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، مرجع سبق ذكره، ص. 120.
- ²³ ينظر: <http://farhatartmuseum.blogspot.com/2013/03/blog-post.html>

5. قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج. 8.
2. خالدي محمد، المستشرقين وأثرهم الفكري والفني في الجزائر، مجلة الأثر، العدد 13، مارس 2012.
3. زينات البيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، الكويت، عالم المعرفة، 1998.
4. الصادق بخوش، التدليس على الجمال، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال الروبوبة، 2002.

5. عفيف البهنسي، أثر الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1998.
6. عفيف البهنسي، الفن الحديث في البلاد العربية، تونس، دار الجنوب للنشر، 1980.
7. فوزي سعد الله، قصبة الجزائر الحاضر والذاكرة والخواطر، الجزائر، دار المعرفة، 2007.
8. مالك بن نبي، مشكلات الحضارة من أجل التغيير، دمشق، دار الفكر، 1995.

9. <http://farhatartmuseum.blogspot.com/2013/03/blog-post.html>

10. <https://ar.wikipedia.org/wiki>